

تداولية السرد التراثي - قراءة في نقد النقد -

The pragmatism of the traditional narrative - Reading in the criticism of criticism -

سعيدة حمداوي، جامعة أم البواقي، الجزائر، ssaidahamdaoui@gmail.com

تاريخ قبول المقال: 13-10-2023

تاريخ إرسال المقال: 01-08-2023

الملخص:

يروم هذا البحث من خلال قراءة في خطاب نقد النقد تفحص متتين نقديين اتفقا على انتهاج المقاربة التداولية في دراسة متون سردية من التراث العربي الأصيل، وهذان المتتان هما: "من السردية إلى التخيلية" لـ سعيد جبار، و"النص السردى التخيلي مقارنة تداولية: "المقامة البغدادية" للهمداني" لـ محمد نجيب العمامي. وقد اجمع الناقدان على إمكانية قيام تداولية سردية تعني بكل أشكال السرد القديم والحديث في فضائنا العربي كما سبقه إلى ذلك دراسات قربت التداولية إلى الخطابات السردية، وانتهت بذلك قطيعة لسانية روجت لاستحالة قيام مقارنة تداولية تخص الخطابات التخيلية.

الكلمات المفتاحية: التداولية، السرد، التراث، نقد النقد.

Abstract:

The research aims, through a reading in the criticism of criticism, to study two critical studies that agreed to follow the pragmatic approach in the study of narrative texts from the original Arab heritage. These two studies are: "From Narration to Imagination" by Said Jabar, and "Narrative Imaginative Text Approach Pragmatics: Al-Hamdhani's "Baghdad Maqama" by Mohamed Najeb Al-Amami. The two critics agreed on the possibility of a pragmatic novel dealing with ancient and modern forms of narration in our Arab region, as it was preceded by studies that brought pragmatism closer to narrative discourse, and thus ended a linguistic rupture that said it was impossible to create an approach related to imaginary discourses.

Key words : Pragmatism, narrative, tradition, critique of criticism

مقدمة:

تنظر التداولية إلى الخطاب السردى والأدبي بعامة بوصفه خطابا تخيليا يبتعد عن خصائص الخطابات اليومية في ارتباطها السياقي الواقعي. إذ لا يخضع الأدب في انتظامه إلى "معياري الحقيقة والصدق اللذين يعتبران شرطا أساسيا للتصور التداولي للكفاية التواصلية"⁽¹⁾، بل إلى نظامه الداخلي في انقطاعه عن المرجعي دون أن يعتمد المؤلف إلى البرهنة عن صحة أقواله وصدق أحداثه، ودون أن يقصد من خطابه ربط علاقة تواصلية أو تبادلية مع مجموع قرائه. لهذا سعى التداوليون لبيان إمكانية مقارنة الخطاب التخيلي من خلال عقد مقارنة بينه وبين الأقوال الكاذبة والجادة. ذلك أن التخيل ليس للمتكلم فيه نية تضليل المخاطب على خلاف القول الكاذب. علاوة على أن التخيل لا يمكن قياس كونه جادا بالنظر إلى احتمال الصدق والكذب في الأقوال الجادة.

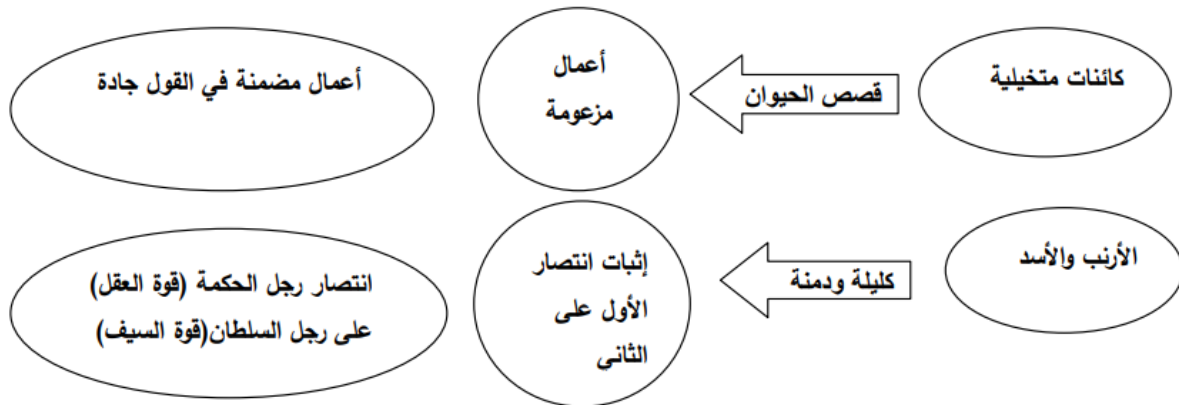
من هذه المنطلق، يشير دومينيك مانغينو (Dominique Maingueneau) إلى "انتظام الأعمال اللغوية داخل النص القصصي فاستعمل مصطلح "العمل الخطابى الأكبر"... بالتركيز على المقاطع الخطابية فيها يتميز مقطع من آخر بالعمل اللغوي الأكثر بروزا"⁽²⁾. أما دان سبيربر (Dan Sperber) وديدر ولسن (Deirder Wilson) فيعتبران أن التخيل يتماهى مع الواقع على الرغم من أنه يتناقض في أحيان كثيرة مع السياق، وأنه من جانب آخر "غير حرفي، فانه يساهم رغم كذب معظم الأقوال التي تكون خطابه في بناء تمثّل للكون أو تجويده" [لهذا] يمكن تأويله بكل ببساطة كما لو كان خطابا حرفيا"⁽³⁾. في حين، يخضع جون أوستن (John Austin) الخطابات التخيلية لما اسماه بالإيهام الوصفي أو المغالطة الوصفية؛ لأنها ملفوظات غير جادة ولا تحتكم إلى معيار الصدق والكذب؛ لأنك حين تقول تفعل ونحن لا نتحدث عن الوقائع بل نقوم بأشياء أيضا. وهذا ما لا نجده في الخطابات التخيلية. وفق هذا التصور، توقفنا بالدراسة والتوصيف حسب ما يمليه خطاب نقد النقد عند دراستين نقديتين قاربتا نصوص سردية تراثية وفق آليات تداولية. وهو ما يحيلنا على السؤال الآتي: هل أضاف النقد العربي إسهامات للمقاربة التداولية؟ وهل أكد على طوعية النصوص السردية التراثية لمثل هذه المقاربات اللغوية المعاصرة؟

المبحث الأول: العرض النظري

يقدم المطلبان الخلفية النظرية المتعلقة بالتداولية والخطابات السردية، ويناقشان رأي كل من جون سورل وجون ك أدامز.

المطلب الأول: التداولية والسرد عند جون سورل

يعد جون سورل (John Searle) من أبرز التداوليين الذين حاولوا إيجاد مقارنة تداولية للخطابات السردية حيث أكد "أن مؤلف التخيل يختلف "il fenit" دون أن تكون له قصدية تضليل المستمع أو القارئ"⁽⁴⁾؛ ما يعني عدم وجود نية للمغالطة لدى المتكلم، إنما الإيهام بإنجاز عمل متضمن في القول يفيد الإخبار يتحقق في حالة كانت هذه الأقوال صادقة في الخطاب التخيلي. وقد بين أن "الأعمال المضمنة في القول في نص تخيلي أعمال غير جادة ويسمىها "أعمالاً مصنعة"⁽⁵⁾. في حين، أن الخطابات الأخرى أعمال صادقة جادة أسماها بأعمال الإثبات، وهي أعمال مصنعة مزعومة، وتتضمن "أعمالاً لغوية غير مباشرة جادة صادقة، كما هو الشأن في قصص الحيوانات"⁽⁶⁾؛ ما يعني أن كون الخطابات التخيلية غير جادة من منطلق وجود شخصيات تخيلية يوهم بالإحالة إليها واقعياً، وأن هذه الشخصيات في الخطابات الجادة غير التخيلية تكون أصلية تماماً.

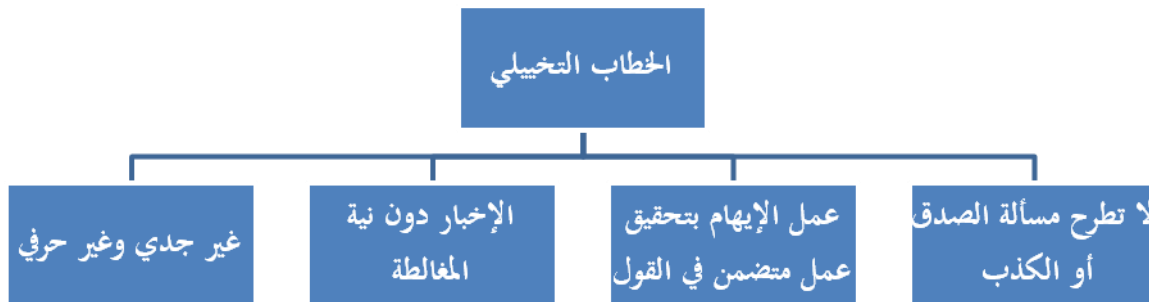


الشكل 1: نموذج من الأعمال المصنعة

المصدر: مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، ط1، دار محمد علي للنشر، تونس، 2010، ص: 84.

إن من بين الأسباب التي جعلت التداولية بعيدة عن مقارنة الخطابات التخيلية أن المؤلف يبث "قولا يمثل قصته هي في معظم الأحيان خاطئة، وهو يعلم أن هذه القضية خاطئة، ويبثها مخاطبا أو قارئاً يعلم أيضا أنها خاطئة"⁽⁷⁾؛ ما يعني أن الخطأ يسم القول الذي يبثه المؤلف لعدم وجود تلك الشخصيات والأحداث ما يجعل مضامينها ضعيفة إبلاغيا. ولهذا، حاول سورل إيجاد صيغة تلائم نظرية الأعمال اللغوية للخطابات السردية بالنظر إلى أن الروائي ينجز أقوالا في مجملها أعمال إخبارية تمثل "عملا متضمنا في القول مخصوصا يتمثل في رواية حكاية أو كتابة رواية"⁽⁸⁾. مع توخي قاعدة الانسجام في الخطاب التخيلي لضمان تماسكه.

تحقق الخطابات التخيلية أعمالا متضمنة في القول حين "تحيل على شخصيات أو أماكن أو أحداث وقعت فعلا ويمكن للمخاطب أن ينجز حول هذه الشخصيات أو هذه الأماكن أو هذه الأحداث حقيقة"⁽⁹⁾. من هنا، يثير سورل مسألة الجدوى من التخيل ويتساءل: لماذا نمضي الوقت في كتابة خطابات غير جادة في التخيل أو قراءتها؟ وهو يرى أن الآثار التخيلية تحمل رسالة تتغل عبر الخطاب دون أن تكون في الخطاب بآتم معنى الكلمة. نجل أهم خصائص الخطابات التخيلية من وجهة نظر تداولية في المخطط الآتي:



الشكل 2: خصائص الخطابات التخيلية من وجهة نظر تداولية

المصدر: موشلر، جاك، ريبول، آن. القاموس الموسوعي للتداولية، تر/ مجموعة من الأساتذة، ط 2، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ص: 471.

المطلب الثاني: التداولية والسرد عند جون ك أدامز

يذهب جون ك أدامز (Jon K Adams) إلى القول بوجود علاقة تكاملية تجمع بين التداولية والقصة؛ إذ "تُعنى التداولية بمبادئ استخدام اللغة، التي فيها يُعد المتكلم والمستمع العنصرين الرئيسيين اللذين يحددان التأويل اللساني. أما القصة فهي شكل من أشكال استخدام اللغة، تمثل الحاجة إلى البحث عن العلاقة بين اللغة ومستخدميها من أجل استخلاص تأويل"⁽¹⁰⁾؛ ما يعني أن محور اللغة وكيفية استخدامها عند المتكلم والمستمع نقطة اللقاء بين التداولية والقصة علاوة على أن عملية التأويل حاضرة فيهما معا. وهو ما يؤكد على أن "القصة تُعرف ببنيته التداولية، وفي المقابل، تعد هذه البنية جزءا ضروريا من أجزاء تأويل القصة"⁽¹¹⁾.

ولا يخفي أدامز حذره من وصف البنية التداولية للقصة من منظور مشكلات تطرحها لسانيا، وأبرز هذه المشكلات قضية المرجع Reference ، ويزعم "أن الجانب المعرفي (الابستمولوجي) للمرجع، والذي يصور عادة على أنه الصلة بين اللغة والعالم ينبغي أن يفصل عن الجانب التداولي، الذي هو ببساطة شخص ما يتحدث عن شيء ما"⁽¹²⁾. ولتبيد هذه المزاغم ناقش ثلاثة آراء تصب جميعا في قبول فرضية مقولة الوجود، وجود الكلمات لما تمثل له في العالم على الرغم من أنه يرفض تقديمها من الأساس، أولها رأي سورل الذي يرى إمكانية الإشارة إلى شرلوك هولمز؛ لأنه موجود في القصة، غير أن الانتقاد كان حول رفض مقولة الوجود واقتراح بديل هو مناقشة الكيانات غير الموجودة وهو رأي زيف (ziff)، والثالث يرى أن الكيانات القصصية لها وجود في الحقيقة، ويمثله فان إنو اكن (van lawagen)⁽¹³⁾. والبديل الذي يضعه هو إلغاء فكرة تطابق اللغة بالحقيقة.

إن الكاتب هو من يحدد البنية التداولية للنص الذي سيكتبه "وحينما يقرر أنه سيكون قصة، فإنه يضع بنية تداولية مميزة"⁽¹⁴⁾. وقد حاول أدامز اقتراح وصف تداولي للقصة مقاما على فعل يُنجزه الكاتب لكنه ليس فعل كلام، إذ ينسب إنجاز أفعال كلامه إلى متكلم يختلقه، وينسب ما يكتبه إلى متحدث ويتظاهر بانجاز أفعال كلام. ذلك "أن كل نص قصصي يتجسد في سياق قصصي يتضمن متكلمًا ومستمعًا قصصيين. إن الكاتب والقارئ الحقيقيين من جهة أخرى ليسا جزءا من هذا السياق، وهما بذلك لا يتفاعلان مع بعضهما على المستوى التواصلية"⁽¹⁵⁾. هذا الاختلاق والتظاهر يفرض وجود نوعين من أفعال الكلام أحدها يختص بها الكاتب وهي حقيقية وقصصية، والأخرى قصصية خاصة بالشخصيات القصصية.

إن القصة تمثيل لغوي لعالم متخيل وليست هي العالم المتخيل نفسه. هذا الاستخدام للغة سواء كان طبيعياً أو مصطنعاً يتيح فهمها من طرف شخص واحد على الأقل. "ولأسباب عملية تقدم القصة عادة بلغة طبيعية ولها عدد من القراء المحتملين. لكن طالما أن القصة يجب أن يكون لها في الأقل قارئ واحد في العالم الحقيقي فإنها مجبرة على التوافق مع خصائص معينة لاستخدام اللغة. واحدة من هذه الخصائص هي وجوب أن يكون للقصة سياق تواصل بوصفه جزءاً من بنيتها اللغوية، لأنه من أجل تقديم عالم قصصي بوساطة اللغة يجب إنجاز أفعال الكلام، ويجب أن يُنجزها أحد ما وفي سياق ما"⁽¹⁶⁾. إن سبب الاعتراض على استخدام أفعال الكلام في الأدب عدم قابليتها للتأويل، وهذا السبب مضلل حسب آدامز؛ لأنها قدمت في الدرس اللساني مشوهة مقتطعة عن سياقها وفهمها جيداً يجب أن "لا تظهر منعزلة لا في النصوص القصصية ولا في الحديث اليومي... إنما مع أفعال كلام أخرى، وحينما نقرأ نفهم فعل الكلام بربطه بأفعال كلام أخرى في السياق، تأمل - مثلاً - هذه الجملة: (أكانت تستحق ذلك؟) إذا نظرنا إليها منعزلة فمن المحتمل أن نقول إن هذه الجملة تمثل سؤالاً، لكن حينما نقرأها في سياق القصيدة التي منها أخذت وهي أغنية الحب لـ ج. ألفرد بروفروك The Love Song of J. Alfred Prufrock نعلم أنها ليست سؤالاً، أو أنها ليست سؤالاً فقط لأن علاقتها بالسياق التواصلية تحولها وفي الوقت نفسه تثبتها في تأويلنا أن السؤال في سياق القصيدة بلاغي والأسئلة البلاغية تعمل مؤكدات إذ يقصد منها (تقديم معلومات)"⁽¹⁷⁾.

المبحث الثاني: قراءة في نقد النقد

نتعرف في هذين المطلبين على بعض الآليات المنهجية التي اعتمدها النقاد العرب من أجل مقارنة الخطاب السردى التراثي وفق الطرح التداولي "لنرى مدى وجود إمكانية المرور بما هو سردي إلى ما هو تداولي على المستوى المنهجي التحليلي"⁽¹⁸⁾. من خلال دراستين الأولى لـ سعيد جبار والثانية لـ محمد نجيب العمامي.

المطلب الأول: قراءة نقدية في كتاب "من السردية إلى التخيلية" لـ سعيد جبار:

نفكك فيه المتن النقدي "من السردية إلى التخيلية" لـ سعيد جبار وفق آليات خطاب نقد النقد بدءاً من تحديد الأهداف من الدراسة مروراً ببيان المتن مجال الدراسة وصولاً إلى الممارسة النقدية والآليات النقدية الموظفة.

أولاً: الأهداف

بين سعيد جبار في مقدمة كتابه "من السردية إلى التخيلية" الأسباب التي دفعت إلى انتهاج مقاربتين نقديتين في دراسة النصوص السردية التراثية، هما: البنيوية السردية والتداولية. وقد وجدت التداولية ضالتها في "تلك النصوص التي توحى بطابعها الواقعي الوثائقي، وتكون في بنائها أقرب إلى النص التاريخي منه إلى النص الأدبي التخيلي"⁽¹⁹⁾؛ ما يعني أن هذا الطابع التفاعلي بين الواقعي والتخيلي لهذه النصوص التراثية كانت سببا رئيسا في إثبات قابلية إخضاع السرود على اختلافها لمقاربات تستكشف عوالمها الدلالية المنسجمة.

استعانت الدراسة بأدوات منهجية انتقلت من البنيوي إلى الدلالي دون تنافر بينهما، ما يؤسس لبداية انفتاح السرديات واستيعابها لمعارف "قريبة تطعمها وتمكن الدارس من استغلال نتاج الوصف البنيوي في بناء أنساق دلالية خاصة"⁽²⁰⁾؛ ما يعني أن التداولية حاولت أن تكون حلقة وصل تربط بين البنيوي والدلالي في نوع من الانسجام مع مراعاة تجنب أي خلل منهجي أثناء عملية التحليل.

ثانياً: المتن

إن مجمل المتن الذي اختارها جبار محل الدراسة نصوص تراثية متنوعة صنفها ضمن الطابع السردية رغم تشكلها الواقعي، هذه المتن هي: "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ، السيرة النبوية في بعض تحولاتها التاريخية، الرحلة العياشية. وتشترك هذه النصوص في "أنها تحكي ما وقع فعلا، فابن منقذ... يكون مؤسسا... لما يعرف الآن بالسيرة الذاتية... أما السيرة النبوية، فهي أميل إلى التاريخ منها إلى التخيل، خصوصا وأنها ترتبط بشخصية لها وزنها التاريخي والقدسي في الثقافة العربية الإسلامية... أما الرحلة العياشية...، ميزتها تتمثل في التداخلات الخطابية بين السرد والوصف والتقرير"⁽²¹⁾؛ ما يعني أن هذه النصوص يجمع بينها صدق أحداثها من جهة، وتشكلها السردية التخيلية في مساحة واسعة من جهة أخرى.

الجدول 1: تمثلات الواقعي والتخييلي في متون الدراسة

الجانب الواقعي	الجانب التخييلي
كان "الاعتبار" أمينا في تقديم مجموعة من الوقائع التي عرفها القرن السادس الهجري، والمؤلف شارك في الأحداث أو شهد وقوعها.	إن إعادة الإنتاج السردية عن طريق اللغة، واستحضاره عبر الذاكرة في زمن مغاير لزمن وقوعه كفيلا بأن يفقده جانبا واقعيته
تضمنت هذه الإنتاجات المختلفة عناصر ثابتة تكررت مع جل الرواة أن لم نقل كلهم، وهو ما تمثل جوهر السيرة النبوية وحقيقتها.	تضمنت كل رواية عناصر أخرى انفردت بها دون باقي الروايات الأخرى، وهي متغيرات السيرة.
تقوم "الرحلة العياشية" على الرحلة الفعلية التي قام بها الرحالة على أرض الواقع ودونها في زمن لاحق توازيها رحلة جديدة لاحقة.	يجد المتلقي ركام من الأخبار والمعلومات تحتاج إلى تنظيم لاستيعابها، وبالتالي يصف خطاباتنا (سردية، وصفي، تقريرية، معرفي).

المصدر: جبار، سعيد. من السردية إلى التخييلية، ط1، دار الأمان، الرباط، 2012، صفحات متفرقة.

ثالثا: الممارسة النقدية

تتبنى الدراسة على إجراءات منهجية تستهدف بالأساس خطابات واقعية يومية. من هنا، يطرح سعيد جبار سؤال جوهري، هو: إمكانية نجاح هذه الإجراءات "وهي تقارب سياق التلقي بمقصدية مضبوطة ضمنت للنص استمرارية تواصلية على مدى قرون من الزمن دون أن يفقد قوته التأثيرية في المتلقي (بن) المتعدد(ين)"⁽²²⁾. من أجل ذلك، قرنت الدراسة بين الإجراءات السردية والتداولية إلا أننا سنتوقف عند الإجراءات التداولية، والتي وظفت أدوات جاء بها كل من سورل وأوستن من قبيل أفعال الكلام والمقصدية الإخبارية والتواصلية عند سيبرير وويلسن. واعتمادا على المثلث التداولي (المرجع ما يتكلم عنه، المتكلم الذي يتكلم، المرسل إليه الذي يوجه به الكلام) نستبين العلاقة التفاعلية التي تربط المتكلم بالمتلقي من أجل بناء الدلالة، وتحقيق عملية التواصل، والتأثير الفعال في المتلقي.

كان "الاعتبار" نموذجا لبيان فعالية المثلث التداولي، بوصفه خطابا لغويا يعمل على تحقيق تواصل وبعث عن وجود التزام بين المرسل (المتكلم) وهو ابن منقذ، والمتلقي (المرسل إليه)، "فطبيعة العلاقة التي تربط المتلقي (القارئ) بكتاب الاعتبار يجعل سياقات الإرسال والتلقي يختلف؛ فالمرسل وهو يتلفظ (يكتب) هذا النص في القرن السادس الهجري كان يضع إنتاجه في سياق خاص"⁽²³⁾؛ ما يعني أن المرجع يتحدد

بمجموع المقاصد التي يرمي النص تحقيقها لقارئ ينتمي لزمن معين سواء كان المتلقي في القرن السادس الهجري أو المتلقي الحديث.

اهتم سعيد جبار ببيان مقصدية النصوص مدار الدراسة، وقد ذاع هذا المصطلح عند إدmond هوسرل (Edmund Husserl) وعدله فيما بعد تداوليون آخرون، حيث تم رصد نوعين من المقاصد في كل النصوص محل الدراسة، نجلها في الجدول الآتي:

الجدول 2: مظهرات المقصديتين الإخبارية والتواصلية في متون الدراسة

المقصدية التواصلية	المقصدية الإخبارية
الاعتبار	
يستعين بموجهات تعيد البناء ضمن معايير خاصة عند الانتهاء من قراءته وتمثله (علاقة العنوان بالمادة السردية مقصدها التواصلية تعليمياً توجيهياً، تأثيري)	يقرأ المؤلف السارد الأحداث تباعاً من أجل غاية إخبارية خالصة يقدمها للمتلقي
السيرة النبوية	
يحدد زمن المرسل ما يرمي تبليغه للمتلقي فقصدية ابن إسحاق أو ابن هشام، هي القصدية نفسها التي أنتجها ابن الجوزي السيرة في القرن السادس الهجري، وهو ما أعلن عن جانب منه صراحة في مقدمة كتابه.	التعريف بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالرسالة التي جاء بها لتعبر مسار حياة العرب والإنسانية بهذه القصدية تتحقق من خلال نص واحد يتداول عبر الأزمنة المختلفة دون أن تكون في حاجة إلى إعادة إنتاجها
الرحلة العياشية	
تأثيث خطاب معرفي يمرره للمتلقي، والاستدلال على صدقيتها بطرق مختلفة للتأثير فيه وإقناعه. وتنقل العتبات النصية، والموجهات الخطابية الخطاب من الدلالة الطبيعية إلى غير الطبيعية ورصد الأبعاد الضمنية لخطاب الرحلة.	يزود كل فضاء يرتاده الرحالة -الشخصية بمعلومات وأخبار يحتفظ بها، ويستحضرها لتنسيقها من جديد زمنياً. ويقوم على تجاوز الأخبار المسلسلة زمنياً، والمتنقلة عبر فضاءات مختلفة. ووضع المتلقي في إطار للرحلة وأطوارها، والقضايا التي يمررها الرحالة.

المصدر: جبار، سعيد. من السردية إلى التخيلية، ط1، دار الأمان، الرباط، 2012، ص 96 وما بعدها

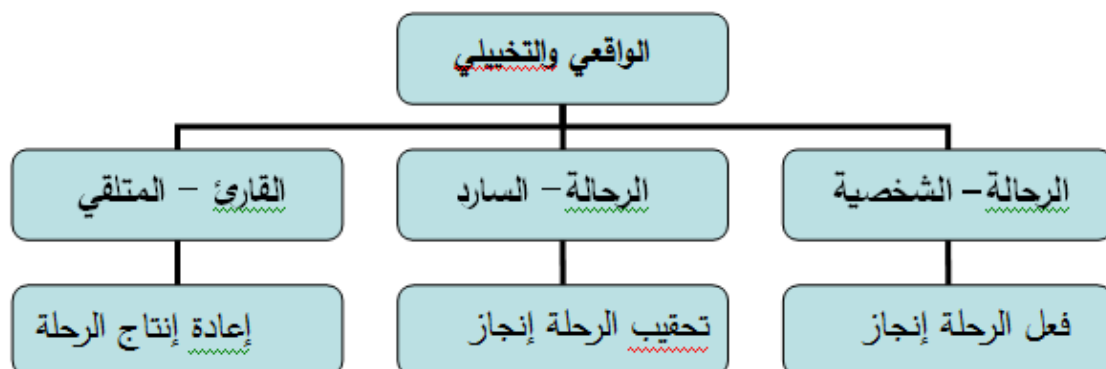
شكلت نظرية الملاءمة مبحثاً آخر استوقف سعيد جبار في الخطاب الرحلي "تأسس على هذه الأسس السياقية التي توجهه كفعل لاحق يعيد إنتاج فعل في زمن سابق، ويخبرنا عنه. فالعياشي - الرحالة وهو ينتج الرحلة لغوياً، يخبرنا من جهة بأنه قام برحلة إلى المشرق بنية أداة مناسك الحج، ومن جهة أخرى ينتج معرفة يرغب في أن يستوعبها متلقي هذه الرحلة عبر مجموعة من الملفوظات المتوالية. ويتأتى ذلك من خلال الموجهات الخطابية التي يعتمدها الرحالة- السارد وهو يمرر أخباره عن الرحلة"⁽²⁴⁾؛ ويعنى بالملاءمة "تأويل الملفوظات اللغوية...ضمن سيرورة مكونة من مرحلتين...تعنى بتفكيك السنن اللغوية...وإثراء البنية المنطقية سياقياً من خلال بناء فرضية أو فرضيات حول المقاصد الإخبارية للمتكلم"⁽²⁵⁾؛ ما يعني أن نظرية الملاءمة في الرحلة العياشية تجمع بين البعد التداولي (أنتج الرحالة نصاً لغوياً عن أدائه مناسك الحج)، والمعرفي (ما يقصد تبليغه للمتلقى من أخبار). رصد جبار أربعة مستويات للموجهات الخطابية في خطاب الرحالة بحسب اعتقاده في ما يخبر به وعدم اعتقاده فيه، يبينها الجدول الآتي:

الجدول 3: مستويات الموجهات الخطابية في خطاب الرحالة

خطاب يقين	خطاب تصديق	خطاب ظن	خطاب إنكار
يسرد الرحالة مباشرة ما وقع فعلاً أو ما شاهده عياناً فأخبر عنه، دون موجه خطابي	يستعين بالموجهات الخطابية لإقناع المتلقى بصدق أخبار غيره المفارقة زمنياً	ينقل ما سمعه من الآخر الأقل ثقة من سابقه، فيتحاشى ذكره (يزعمون، فيما زعموا) به.	يتعلق بأحداث يرفضها لعدم ملاءمتها لمعتقداته أو أنه لا يملك ما يثبتها به.

المصدر: جبار، سعيد. من السردية إلى التخيلية، ط1، دار الأمان، الرباط، 2012، ص 196-197.

في حين، تتراوح الأخبار الواردة في السيرة النبوية بين طابعها اليقيني، والظني. ولم ترد الأخبار الظنية في مصادر تدعم واقعيتها. ويتجلى تفاعل الواقع بالتخييل في الرحلة العياشية في العلاقات الآتية:



الشكل 3: تفاعل الواقع بالتخييل في الرحلة العياشية

المصدر: جبار، سعيد. من السردية إلى التخييلية، ط1، دار الأمان، الرباط، 2012، ص 204.

المطلب الثاني: قراءة نقدية في "النص السردى التخييلي مقارنة تداولية: "المقامة البغدادية" للهمذاني لـ محمد نجيب العمامي

نفكك فيه المتن النقدي "النص السردى التخييلي مقارنة تداولية: "المقامة البغدادية" للهمذاني لـ محمد نجيب العمامي وفق آليات خطاب نقد النقد بدءاً من تحديد الأهداف من الدراسة مروراً ببيان المتن مجال الدراسة وصولاً إلى الممارسة النقدية والآليات النقدية الموظفة.

أولاً: الأهداف

بين محمد نجيب العمامي أهداف هذه الدراسة في سبب رئيس، هو قصور المقاربة المستهدفة المستويين التركيبى والدلالى للغة عن الإحاطة بمتطلبات القارئ، وهذا ما جعل التداولية أنجع المقاربات بوصفها "دراسة العلاقات الموجودة بين اللغة ومستعملها" أو بصفتها "دراسة الأعمال اللغوية" أهمية في فهم الكلام وتأويله⁽²⁶⁾. هذه الشمولية أتاحت للتداولية إمكانية اختراق النصوص الأدبية والسردية منها على حد سواء، على الرغم من عدم وجود تداولية شاملة تستهدف هذا النوع من النصوص، لكن المطمئن تلك النظرة إلى "نص التخييل بوصفه، أساساً، تواصلاً وإلى فعل القراءة بصفته، جوهرياً، علاقة حوارية"⁽²⁷⁾.

على الرغم من أن العمامي يشير إلى نسبية المقاربة التداولية في استكشاف مكامن النص، إلا أن التحليل التداولي يفتح آفاقاً جديدة لتحليل النص السردى التخييلي قديمه وحديثه. ويوفر زاداً نظرياً مهماً لدراسة الحوار وبناء الأحداث. وفي المقابل يهمل دراسة الخصائص البنائية للخطابين السردى والوصفى، ويهتم بمقاصد القول، ويغفل طرائق القول. ومع أنه لفت الانتباه إلى تراكم أنواع المقامات في النص

السردية، وقدم تميزاً بين ما هو تخييل مما هو واقعي، غير أنه لم يتوقف عند الفروق القائمة بين المقام التخيلي الراوي/ المروي له والمقام الواقعي المؤلف / القارئ⁽²⁸⁾.

ثانياً: المتن

إن سبب اختيار فن المقامة والمقامة البغدادية متنا للدراسة مع أنه من الأدب المكتوب وأن "كل تواصل مكتوب هش بما أن المستقبل لا يشاطر المتكلم مقام تلفظه. فثمة، في نظره، انعدام تساوق بين موقعي التلفظ والتلقي لا سبيل إلى إنكاره. ورغم ذلك كله يمكن مقارنة المكتوب تداولياً؛ بسبب أن القارئ متلفظ مشارك ماثل في خطاب المؤلف والنص منتوج يجب أن ينتمي مصيره التأويلي إلى آليته التكوينية الخاصة"⁽²⁹⁾.

إن المقامة بوصفها عملاً لغوياً تفتح إشكالية تتعلق بصعوبة تحديده وتعدد القراء وتأويلهم لمقاصد تأليف هذا الجنس الأدبي النثري على مر العصور والأزمنة، وبيان أنساقه المضمرة "وما في نصنا من ثغرات ومسكوت عنه تؤكد أن القارئ، أياً كان مكانه وزمانه، عنصر من العناصر التكوينية للمقامة"⁽³⁰⁾.

ثالثاً: الممارسة النقدية

كان العنوان أول مدخل قرائي استوقف العمامي بالنظر إلى بنيته المركبة نعتياً فبين مقامة الهمذاني وقارئها عقد قراءة تكوّن خصائص الجنس بنوده الكبرى. ولذلك فالقارئ غالباً ما ينتظر تحقق ما توقع في مستوى مكوني العنوان ومستوى البنى الملزمة. وتستدعي المقامة سنداً وهو: "حدثنا عيسى بن هشام قال" وهو ما يسمى بالتقرير أو المشاكلة التداولية، ويسند فيه موضوع الحديث إلى مصدره، حيث يشترط فيه "اعتقاد ذات التلفظ في صحة ما تقرره، وقدرتها على إثبات صحته. وفي هذه الحالة كان التقرير مموهاً أو مصطنعاً؛ لعدم وجود شخص تاريخي يحمل اسم "عيسى ابن هشام" وانتماء النص إلى جنس المقامة المندرج في خطاب التخيل⁽³¹⁾.

إن قابلية مقارنة المقامة تداولياً نابع من التناص الذي تحيل عليه عبارة "حدثنا عيسى بن هشام" بين جنسي الحديث والخبر بخصائصهما اللغوية الواقعية. إن عبارة: "اشتھيت الأزاذ وأنا في بغداد وليس معي عقد على نقد. فخرجت أنتهز محالّ فأحلّني الكرخ". تعتمد على إنجاز عمل لغوي يهيمن على كل سرد هو عمل التقرير. ويرى العمامي وفق رؤية أوستين أن الاكتفاء بالوقوف عند العمل المضمن في القول الذي هو التقرير غير كافٍ للتحليل، ذلك أن النص يعلن ويضمّر أقوالاً.

الجدول 4: الملفوظ وما يجهر به وما يضم

ما يضمه الملفوظ	ما يجهر به الملفوظ
كان عيسى صاحب مال في مكان لا يتوفر فيه الأزد موضوع الشهوة، وأنه رحالة وبغداد من محطات أسفاره. وتحديد المكان مراعاة لقانون الإفادة أو الفائدة. ويقتضي أن يخبر متلقي خطابه بما يعتقد أنه يفيد ويثير اهتمامه. ويمكن للقارئ أن يستنتج اعتماداً على مقولة العلاقة. وعيسى بصدد بناء السياق المرجعي للعالم الذي يصوره، فقد حدد الشخصية والمكان والزمان ويؤكد وهو ينجز عملاً لغوياً هو الإحالة، لأن النص السردى يحيل على خطابات أخرى.	في مستوى المعطى أو المحتوى القضوي كان عيسى لحظة الحدث موجوداً ببغداد وأنه انتهى الأزد. وتبدو غريبة على أن عيسى يفترض أن كفاءة مخاطبه اللغوية تمكنه من فهمها. أما من يجهل دلالتها فبإمكانه معرفتها تقريباً بفضل السياق المقال: "اشتهيت، ليس معي عقد على نقد". وهو مدعو إلى القيام بعمل استدلال من قبيل: بما أن الأزد مما يشتهى ومما يباع ويشترى فهو إذن بضاعة عزيزة.

المصدر: العامي، محمد نجيب. النص السردى التخيلي مقارنة تداولية: "المقامة البغدادية" للهمذاني أنموذجاً، مجلة سيميائيات، ع01، مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، وهران، ص 92-93.

يقوم القارئ بعملية استدلالية من خلال توضيح المقصود من الكرخ من خلال السياق المقال وتحديد لفظه "محاله"، فيتغير السياق المرجعي بظهور شخصية السوادي، وحين يسكت عيسى عن كل هذا فيخل بقاعدة من قواعد المحادثة، فيستنتج القارئ أن في الإخلال بهذه القاعدة احتراماً لقانون الإفادة، ومنها ما يقدمه السياق المرجعي فعيسى مقيم والسوادي وافد على المدينة، ومن مبادئ التعاون في الحوار ومن مقتضياته التداولية أن التحية توجب رداً، والسؤال يفرض جواباً⁽³²⁾.

الجدول 5: الأفعال اللغوية لدى عيسى والسوادي

أفعال السوادي اللغوية	أفعال عيسى اللغوية
النفي "لست بأبي زيد" التقرير: "ولكنني أبو عبيد". انجر عنها أفعال التقرير والدعاء والسؤال. أثمرت أعمال عيسى اللغوية وأدت المنتظر منها،	التقرير حين قال ضمناً إن الرجل جاء من مكان بعيد وهو مرهق، ويملك مالاً يخاف عليه من لصوص بغداد ومحتالها. القسم: "ظفرنا والله بصيد".

الدعاء: "حياك الله"	وهو عمل تأثير بالقول يمكن تسميته بزرع الثقة
التكنية: "أبا زيد"، وتؤدي عمل تأثير بالقول هو	في نفس السوادي. وفلا فقد زال شكه وانخرط في
الطمأننة.	الحوار طبقا لخطة عيسى، وذلك بإنجازه عملي
السؤال: "من أين أقبلت؟ وأين نزلت؟ ومتى وافيت؟"	الجواب والرجاء: "لقد نبت الربيع على دمنته وأرجو
الدعوة: "هلم إلى البيت".	أن يصيره الله إلى جنته".

المصدر: العمامي، محمد نجيب. النص السردى التخيلي مقارنة تداولية: "المقامة البغدادية" للهمداني أنموذجا، مجلة سيميائيات، ع01، مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، وهران، ص 94 وما بعدها

إن تجديد الدعوة ينجز عملا مضمنا في القول مباشرة هو التخيير، وعمل تأثير بالقول هو الإيجار. فقد حبيب إلى السوادي طعام السوق، ونفره من طعام البيت أو كاد. واستغل السياق المرجعي ليذكره بإرهاقه من خلال عبارة "السوق أقرب"، وأدت أعمال التأثير بالقول من خداع وطمأننة وحمل على الاقتناع إلى نشأة سوء تفاهم خلقه عيسى. ومن زاوية التلقي يستدعي العمل غير المباشر سيناريو الاحتيال، في حين يذكر عملا التأثير بالقول بسيناريو الضيافة⁽³³⁾.

أدى خطاب عيسى غاية تضليلية، ستؤدي فيما بعد صراعا بينه وبين السوادي وفق مقام إيديولوجي محدد مرتبط بمقام الشخصيات. فينقل نبذا من حوار مع الشواء وصاحب الحلوى، وينجز أعمال تقرير لا تخلو من قيمة إخبارية عن السوق. ويتحدث إلى الشواء فينجز أعمالا لغوية مباشرة هي الطلب: "افرز لأبي زيد... ثم زن له... واختر له... وانضد... ورش... ليأكله أبو زيد هنيا"، وهي أعمال ناجحة بما أن الشواء نفذها عندما "انحنى على ساطوره...". ومن المقتضيات التداولية لنجاح عمل الطلب، أن يكون للطالب سلطة ما على مخاطبه، وأن يكون الطلب قابلا للتنفيذ والمخاطب مستعدا له قادرا عليه. ومن المقتضيات التداولية لإنجاز عمل الطلب، في هذا المقام، أن يكون مع الطالب "عقد على نقد" وأن الشواء، يطلب إليه فينفذ لازدهار تجارته ونمو ربحه وتأدية لدور اجتماعي قد يعاقب القانون من يمتنع عن القيام به⁽³⁴⁾.

تكلم عيسى فأسمع الشواء فأنجز أعمالا مضمنة في القول مباشرة، وأكسبه وضع الحريف المرتبط بسياق مقامي أو جدولي مخصوص يمكن تسميته بسياق المطعم. ومن مقتضياته التداولية انخراط الحريف في طقس اجتماعي يتمثل في التحول إلى السوق، وطلب بضاعة ما والحصول على تلك البضاعة واستهلاكها وسداد ثمنها، والسوادي وأنجز في عملا غير مباشر هو عمل تأكيد الدعوة أكسبه

وضع المضيف المرتبط بسياق مقامي له لدى العرب مكانة هو "الضيافة". وأضمر في كلامه إليه معنى مهمتها هو "أنت ضيفي"⁽³⁵⁾.

يحيل قول عيسى: "ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولا يراني أنظر ما يصنع" على غياب مقام تفاعلي وظهور المقام المتخفي، مقام الراوي الأولي وعيسى راويا.. فكشف أنه لم يكن صادقا في اقتراحه وأن هذا الاقتراح وسيلة يتخلص بها من دفع ما أكله هو و"ضيفه". ويفهم من المقتضى الدلالي المضمر في قوله "خرجت" أن الأكل وما سبقه من كلام وما تلاه منه تما داخل محل لا نعرف إن كان واحدا أو اثنين. فالخروج تم من دكان صاحب الحلوى. ولكن النص لم يخبرنا عن خروج عيسى والسوادي من محل الشواء⁽³⁶⁾.

الجدول 6: دلالة الملفوظين المباشر وغير المباشر

"أين ثمن ما أكلت؟"		"أكلته ضيفا"	
مباشر وغير مقصود هو عمل السؤال	غير مباشر وهو الأمر بالدفع	مباشر هو التقرير	غير مباشر هو الرفض.

المصدر: العمامي، محمد نجيب. النص السردى التخيلي مقارنة تداولية: "المقامة البغدادية" للهمذاني أنموذجا، مجلة سيميائيات، ع01، مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، وهران، ص 99.

ولدت لفظة "ضيفا" لدى الشواء ردي فعل متكاملين أحدهما بدني تمثل في الضرب واللكم، وثانيهما قولي جسده أفعال الأمر والسؤال والنفي والتكذيب والشتيم. وقد استند الشواء إلى مقتضى ذي طبيعة اجتماعية اقتصادية. فالضيافة ليست من مصطلحات التجار، وبدورها انتجت أعمال تقرير تخص حياة "الصيد" وحركته وقوله: "فجعل السوادي يبكي ويحل عقده بأسنانه"⁽³⁷⁾.

في نهاية المقامة يعتمد عيسى خطابا شعريا ضمنه أعمالا مباشرة هي الأمر والنهي، وعملا غير مباشر ليس هو التبرير بقدر ما هو الإشادة بقيمة التحيل. ويتوجه بهذا الخطاب إلى نفسه يهنئها بالنصر، ومن كان في وضع المعدم زمن الازدهار الاقتصادي. ذلك أن الشخصيات تشير إلى فضاء إيديولوجي وقيمي متعارض طرفاها أهل الريف بما يتضمنه من قيم إيجابية للضيافة، وأهل المدينة وفق القيمة السلبية للتحيل.

يختم العمامي دراسته بمجموعة من التساؤلات، هي: "إلى أي القيمتين تنتصر المقامة؟ وهل تحمل فكرا ينتصر للمدينة على حساب الريف فتكون بذلك قد أعادت إنتاج السائد أم هل هي تسخر من المجتمع الجديد، مجتمع الصيد والصيد والغاب؟ وما هو العمل اللغوي الشامل في هذه المقامة؟ أهو الإشادة أم هو الإدانة؟ ألا يكون السخرية التي تلاحظ أول ما تلاحظ في البناء الشكلي للمقامة؟"⁽³⁸⁾.

وبهذا، المعنى تكون المقامة محاكاة ساخرة لمحاكي جاد له في دنيا المسلمين وأخراهم عظيم شأن هو الحديث.

الخاتمة:

من خلال قراءتنا للدراستين النقديتين التداوليتين لـ سعيد جبار ومحمد نجيب العمامي نخلص إلى مجموعة من الملاحظات نجملها في الآتي:

- 1- إن المقولة الشائعة عن أن التداولية تداوليات تفتح مجالا حول بروز تداولية تهتم بالخطابات السردية القديمة منها (المقامة، الخبر، الحكاية الخرافية، السير الشعبية،...) والحديث (الرواية، القصة، المسرح).
2- لم يهتم النموذجان محل الدراسة بطبيعة الخطابات السردية من شخصيات وأزمنة وفضاءات وأمكنة وأحداث، وركزت على الملفوظات اللغوية، وما تحقق فيها من أفعال كلامية وفق نظرة أوستن وسورل. والتي ركزت على الأقوال الجادة الواقعية، وأهملت جزءا مهما من أقوال النص غير الجادة.
3- تتبنى المقاربة التداولية على ميزان الصدق والكذب والذي تخضع له كل الخطابات المراد دراستها وهذا ما يجعل من البحث التداولي صعب التطبيق في الخطابات السردية، ولهذا وجب إعادة مراجعة هذه المقولة وفق ما يتطلبه خصوصية النصوص الأدبية.
4- زاوجت الخطابات السردية التراثية مجال البحث بين الواقعي والتخيلي، وهو ما جعل التداولية تركز على مقاصد ودلالات البعد الأول، وتلغي ما سواه وتستبقيه مادة خصبة للدراسات الوصفية المحايثة. وتطرح بإلحاح سؤال: إلى أي مدى يمكن للمقاربة التداولية أن تستوعب الخطابات السردية؟ وما هي حدود اشتغالها وآفاق عملها؟
5- طرح أوزفالد ديكروا (Oswald Ducrot) مقاربة تتبنى على ثلاثة مستويات: الأولى تداولية تتعلق بذات ناطقة حقيقية يسلمها للقارئ، والمستوى الثاني لمتكلم يوزع وينظم الأحداث"، أما المستوى الثالث فيرتبط بممثل المجموع، وهي الرؤى والمواقف المعبر عنها. ونجد أن هذه المقاربة راعت مكونات السرد الأساسية.

الهوامش:

- ¹ - بولان، إلفي. المقاربة التداولية للأدب، تر/ محمد تنفو وليلى احمياني، ط1، دار رؤية، القاهرة، 2018، ص: 11.
- ² - مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، ط1، دار محمد علي للنشر، تونس، 2010، ص: 84.
- ³ - رويول، آن. موشلر، جاك. التداولية اليوم، تر/ سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2003، ص: 198.
- ⁴ - المرجع نفسه، ص: 12.
- ⁵ - مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، ص: 80.
- ⁶ - المرجع نفسه، ص: 84.
- ⁷ - موشلر، جاك، رويول، آن. القاموس الموسوعي للتداولية، تر/ مجموعة من الأساتذة، ط2، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ص: 461.
- ⁸ - المرجع نفسه، ص: 464.
- ⁹ - المرجع نفسه، ص: 468.
- ¹⁰ - آدامز، جون ك. التداولية والسرد، تر/ خالد سهر، ط1، سلسلة مجلة الأقاليم، بغداد، 2009، ص: 7.
- ¹¹ - المرجع نفسه، ص: 8.
- ¹² - المرجع نفسه، ص: 9.
- ¹³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 10-11.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص: 18.
- ¹⁵ - المرجع نفسه، ص: 19.
- ¹⁶ - المرجع نفسه، ص: 41-42.
- ¹⁷ - المرجع نفسه، ص: 69-70.
- ¹⁸ - جبار، سعيد. من السردية إلى التخيلية، ط1، دار الأمان، الرباط، 2012، ص: 24.
- ¹⁹ - المرجع نفسه، ص: 07.
- ²⁰ - المرجع نفسه، ص: 08.
- ²¹ - المرجع نفسه، ص: 07-08.
- ²² - المرجع نفسه، ص: 35.
- ²³ - المرجع نفسه، ص: 92.
- ²⁴ - المرجع نفسه، ص: 194.
- ²⁵ - ختام، جواد. التداولية أصولها واتجاهاتها، ط1، كنوز المعرفة، عمان، 2016، ص: 121-122.
- ²⁶ - العمامي، محمد نجيب. النص السردى التخيلي مقارنة تداولية: "المقامة البغدادية" للهمداني أنموذجاً، مجلة سيميائيات، مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، وهران، مج1، ع01، 2005، ص: 91.
- ²⁷ - المرجع نفسه، ص: ن.
- ²⁸ - المرجع نفسه، ص: 101.

- 29- المرجع نفسه، ص: 91.
- 30- المرجع نفسه، ص: 100.
- 31- المرجع نفسه، ص: 92.
- 32- ينظر: العمامي، محمد نجيب. النص السردى التخيلي مقارنة تداولية، ص: 93-94.
- 33- ينظر: المرجع نفسه، ص: 96.
- 34- ينظر: المرجع نفسه، ص: 97.
- 35- ينظر: المرجع نفسه، ص: 97.
- 36- ينظر: المرجع نفسه، ص: 98.
- 37- ينظر: المرجع نفسه، ص: 99.
- 38- ينظر: المرجع نفسه، ص: 100.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

- 1- آدامز، جون ك. التداولية والسرد، تر/ خالد سهر، ط1، سلسلة مجلة الأقلام، بغداد، 2009.
- 2- بولان، إلفي. المقاربة التداولية للأدب، تر/ محمد تنفو ويلي احمياني، ط1، دار رؤية، القاهرة، 2018.
- 3- جبار، سعيد. من السردية إلى التخيلية، ط1، دار الأمان، الرباط، 2012.
- 4- ختام، جواد. التداولية أصولها واتجاهاتها، ط1، كنوز المعرفة، عمان، 2016.
- 5- روبول، آن. موشلار، جاك. التداولية اليوم، تر/ سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2003.
- 6- مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، ط1، دار محمد علي للنشر، تونس، 2010.
- 7- موشلر، جاك، ريبول، آن. القاموس الموسوعي للتداولية، تر/ مجموعة من الأساتذة، ط2، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010.

المقالات:

- 1- العمامي، محمد نجيب. النص السردى التخيلي مقارنة تداولية: "المقامة البغدادية" للهمذاني أنموذجاً، مجلة سيميائيات، مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، وهران، مج1، ع01، 2005.